

إن الله تكفل لي بالشام وأهلها

د. محمد توفيق رمضان البوطي

يقول الله جلَّ شأنه في كتابه الكريم: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

ويقول جلَّ شأنه: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾

ويقول سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْفُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۚ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ إلى أن يقول بعد ذلك : ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

روى البخاري ورفعته في الترمذي إلى النبي ﷺ ، عن ابن عمر قال : « اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا، قال: قالوا: وفي نجدنا؟ قال: قال: «اللهم بارك لنا في شامنا ويمننا » قال: قالوا: وفي نجدنا ؟ قال : قال : " هناك الزلزال والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان" »

وروى ابن حجر في المطالب الثمانية عن رجل يقال له (خولي)، ورواه ابن حبان وأبو داود عن ابن حوالة بإسناد صحيح، قال: قال رسول الله ﷺ : «إنكم ستجدون أجناداً، جنداً بالشام ، وجنداً باليمن ، فقال له خولي: يا رسول الله خري لي، قال: عليك بالشام، فمن أبي فليلحق بيمنه، وليستق بغدره، فإن الله تكفل لي بالشام وأهله » ولفظه عندهما: " فإن الله توكل لي بالشام وأهله "

وروى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: « ستفتح عليكم الشام، فإذا خيرتم المنازل فيها، فعليكم بمدينة يقال لها دمشق، فإنها معقل المسلمين من الملاحم، وفسطاطها منها بأرض يقال لها الغوطة »

و روى ابن حجر في المطالب الثمانية عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إني رأيت عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي، فأتبعته بصري، فإذا هو نور ساطع عمد به إلى الشام، ألا وإن الإيمان حيث تقع الفتن بالشام» وفي رواية: «فإذا وقعت الفتن فالأمن بالشام» ومعلوم اختصاص دمشق من بلاد الشام بما سبقت الإشارة إليه.

وروى الحاكم في المستدرك حديثاً بإسناد صحيح على شرط مسلم عن النبي ﷺ قال: «الشام صفوة الله من بلاده، يسوق إليها صفوة عبادته، من خرج من الشام إلى غيرها فبسخطه، ومن دخل من غيرها فبرحمته»

أيها المسلمون:

الشام التي أكرمنا الله عز وجل بها، ودمشق خاصة التي خصها بما خصها به، بلاد باركها الله عز وجل وتكفل بها وأودع بها عمود الإيمان أي أنه ضمن الإيمان وحماية الدين فيها، والنبي ﷺ دعا الناس إلى اللحاق بها عند نزول الفتن قال: عليك بالشام، ولفظ عليك بالشام مروى من تسعة وعشرين طريقاً عن النبي ﷺ أي يكاد يصل إلى درجة التواتر، إن لم يكن متواتراً، والعدوان على الشام تحدٍ لكفالة الله لهذه البلاد، تحدٍ لكفالة الله، ومواجهة بالكيد لهذه البلاد التي توعد الله من يكيد لها بقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُؤْيَا لا شك أن كفالة الله عز وجل لهذه البلاد تجلت وظهرت، وعناية الله سبحانه وتعالى بهذه البلاد وأهلها تجلت كأعظم ما يمكن أن يكون التجلي، وظهرت على أوضح ما يكون الظهور، فالكيد كيد عالمي، والمكر تحالفت فيه قوى البغي والشر والعدوان من شتى بلاد الأرض، ولكن الله غالب على أمره، ولا شك أن هذا الكيد عندما يواجه به أهل الشام ويتكفل الله تعالى لأهل الشام، فإن كيدهم سوف يبيء بالخسارة ومكرهم سيعود عليهم بالندم والإحباط. إنهم يكدون كيداً وأكيد كيداً، والمرء لا يعجب أن تكيد قوى الشر لهذه البلاد، فهذا أمر قديم جديد، والنبي عندما تكفل بهذه البلاد، كانت هذه البلاد تحت سيطرة الروم، وأخبر الله عز وجل أنها ستفتح وأنها ستكون خير بلاد الإسلام بعد فتحها، والمتتبع لحال هذه البلاد يلحظ مدى العناية الربانية التي أولى الله سبحانه هذه البلاد بها.

والأمر المستغرب ليس أن تكيد قوى الطغيان والاستكبار في الأرض لهذه البلاد؛ لكن العجيب أن يكون هناك أناس يدعون الإسلام، يلحقون أحذية أولئك الأعداء لكي يضربوا بلاد الشام، هذا هو الأمر المستغرب. أن يصفق هؤلاء لعدو الله عندما يحتضن إسرائيل ويكيد لسوريا، يحمي إسرائيل؛

لأن هذه هي المهمة التي يبدأ بها زعيمهم تاريخه وكرسيه من اللحظة يستلم فيها الحكم في تلك البلاد، يتعهد بحماية دولة البغي والعدوان المغتصبة لبيت المقدس، ثم يحشد قواه في البحر لكي يضرب بلاد الشام، فيصفق له أولئك الذين يدعون الإسلام... هذا هو الأمر المستغرب، والله تعالى يقول: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ هذا أمر سيء؛ ولكن الأسوأ والأقذر منه أن تصفق له وترحب بعدوانه، على من؟ على أهلك على بلدك على وطنك على أمتك .. الظلم موجود، ولكن عندما يكون الظلم موجوداً يعالج بين أبناء البلد لا بإملاءات خارجية ولا بقرارات دولية، معالجة أمورنا تكون بين أبناء بلادنا، ولا تكون بقرارات.. ولا تكون بولاءات خارجية، وقد يقول قائل: فما بالناس نرى أن هناك تعاوناً مع دول أيضاً هي كافرة؟ الجواب في السورة نفسها بعد آيات قليلة.

شتان بين دولة تحشد قواها لكي تضرب بلادك، وبلد آخر يكبح جماحهم ويحاول أن ينتزع فتيل هذا العدوان على بلادك، أيستويان مثلاً؟

الله تعالى يقول: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ طبعاً أقول: إن أي عمل شرير لابد أن يلقي عند الفطرة السوية نوعاً من الاشمئزاز، وهذا الاشمئزاز موجود لدى الشعوب، انظر إلى حالة الشعوب — أنا لا أتحدث عن الحكومات — انظر إلى حالة الشعوب من مشرق الأرض إلى مغربها ما هو موقفها من العدوان على سوريا؟ تأمل وانظر وتابع؛ كيف أن كل تلك الشعوب تقول: لا، رحمةً ببلاد مستضعفة تكالب عليها الأعداء، وإنصافاً لأمة ستذهب ضحية لعدوان غاشم، هذه الشعوب التي تتكلم بفطرتها بغض النظر عن ديانتها وبغض النظر عن انتماءاتها، هي وقفت موقف الرفض لأن تقذف بلاد الشام هذه بعدوان غاشم من أكبر قوة استكبارٍ طاغٍ في الأرض.

لاحظ المفارقة .. أناس غير مسلمين تحركت مشاعرهم بالرفض، ومضوا يعبرون عن رفضهم، وأناس يدعون الإسلام يصفقون لهؤلاء المعتدين ويرحبون بعدوانهم، ويصابون بإحباط وخيبة أمل عندما انتزع فتيل العدوان، كم أصيبوا بخيبة أمل مساكين، لماذا؟ لأنه لم يعد هناك مجال.. أو لم تعد هناك نية للضربة القاصمة لهذا البلد، كم خابت آمالهم! كم أحبطت نفوسهم! لماذا؟ لأن العدوان

قد تأخر نوعاً ما، يعني أرجئ ريثما تتم بعض المفاوضات أصيبوا بخيبة أمل وإحباط .. بالله حدثوني
أيمكن أن يكون هؤلاء أبناء لهذا الوطن أو أبناء لأي وطن! هؤلاء يمكن أن يسموا من البشر هؤلاء
انعدمت لديهم مشاعر الإنسانية، فضلاً عن مشاعر الوطنية أو مشاعر الدين أو مشاعر غير ذلك

أنا أعجب.. هذا وطنك! وهؤلاء أبناء عمك في البلاد! خرجت أنت منه، والجيش في هذه البلاد
هو أخي وأخوك والآخر والآخر.. هذا ليس جيش الأسد هو جيشك، جيش الوطن.. وفيه من
هؤلاء وهؤلاء و هؤلاء، فعندما يُضرب هذا الجيش سيضرب ابن عمك سيُضرب أخوك؛ هو لا يبالي
بذلك كله. فكروا بالموضوع بتجرد، لا بأن تكون موالياً لهؤلاء ولا إلى هؤلاء، حُكِّم ضميرك، حُكِّم
إيمانك، أتصاب بإحباط لأن فتيل العدوان قد انتزع؟! لأن صاعق التدمير قد أُزيل؟! هذا الذي
أصابك بخيبة الأمل والإحباط؟!

أريد من هؤلاء أن يعودوا إلى رشدهم إذا كان لديهم بقية باقية من رشاد، أريد من هؤلاء أن
يعودوا إلى دينهم إذا كان لديهم بقية باقية من إيمان، أريد من هؤلاء أن يعودوا على عقولهم إذا
كانت لا تزال لديهم بقية باقية من عقل.

شعوب الأرض على اختلاف انتماءاتها ومذاهبها وأطيافها تضج بالسخط على العدوان، وأناس
يدعون أنهم أبناء هذه البلاد أو أنهم مسلمون .. يصابون بخيبة أمل لأن فتيل العدوان قد انتزع!!

أقول: هذه بلاد باركها الله وتولى الله حمايتها، وسخر لحمايتها ما سخر، وهياً لحمايتها ما هيا من
قلوب صادقة فيها، ومن أناس يتعاطفون معها، ومن ضمائر إنسانية تتحرك لها، من مشارق الأرض
ومغاربها. فليخسأ كل من أراد أن يُساء إليها، هذا ما عبر عنه رسول الله ﷺ عندما قال: ألا إن
الإيمان في الشام، إن الله تكفل لي بالشام وأهله.

تكفل لكم يا أبناء الشام رب العزة جلّ شأنه، فلتتحدى قوى الأرض كلها كفالة الله عزّ وجل،
ولتخسأ قوى الأرض كلها إذا أرادت أن تواجه كفالة الله سبحانه.

وليُعد أولئك الخائبون إلى خيبتهم، ألم يقل النبي ﷺ «الشام صفوة الله من بلاده يسوق إليها
صفوة عباده من خرج من الشام إلى غيرها فبسخطه، - أي مفضلاً غيرها عليها، ومؤثراً غيرها عليها
- ومن دخل من غيرها فبرحمته» عليك بالشام أربعة وثلاثون طريقاً للحديث عن النبي ﷺ بلفظ
عليك بالشام، أو عليكم بالشام.

هذه بلاد انتزع عمود الكتاب من تحت رسول الله ﷺ فوضعت هنا، هذه بلاد تكفل الله عز وجل بها، هذه بلاد باركها الله سبحانه وتعالى، وأوصى النبي ﷺ عند لزوم الفتن أن نتمسك، بها ونحرص عليها ونحميها، فمن أراد الاعتداء عليها فقد تحدى كفالة الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۖ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۖ فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُويْدًا﴾

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم ...

